

مناقشة لمصادر قضية أحمد بن ماجد

* ياسين عبداللطيف

حقيقتين • فكأن الاستشراق محتوم عليه أن يؤول دائماً الى نتائج سلبية في دراسته للتاريخ العربي وكأنا ملزمون باستخدام نفس الوصفات المستخدمة في التاريخ الغربي ؟ •

نحن كعرب لم يسبق أن رأينا في هؤلاء الباحثين ، مستشرقين حقيقيين بعيدين كلياً عن الايديولوجية لذا فنحن مضطرون الى القول : بأن الحركة الاستشراقية القديمة والحديثة ، تؤدي الى نتائج هزيلة ، كونها تميل الى الايديولوجية متجاوزة حاض الوطن العربي واتجاهاته القومية والوطنية • ناظرة الى تاريخنا العربي على نحو أهدافها الايديولوجية وشروطها التاريخية • وحين نرفض - هنا - حركة الإستشراق ، لأن الطرائق المستخدمة في البحث العلمي لا تنطبق مع أهدافها •

● لقد ربط الباحثون - وأقصد منهم -

● إن حركة الاستشراق الغربية واحدة في العالم ، باختلاف اتجاهاتها النهائية ومفاهيمها المختلفة ، وتشمل هذه : الطرق والأساليب المستخدمة في البحث •

ولقد سعت الحركة الاستشراقية فمهدت لمرحلة التوسع والغزو الاستعماري الغربي ولكي لا نجانب الصواب • نقول : هذا ليس منطلقاً ينطبق على كل المستشرقين ، فهناك قلة ، أبرزت ، وأنصفت حضارتنا العربية الانسانية • ولكن بشكل عام للحركة الاستشراقية حقيقة عامة تعبر عن توجه مدروس له أهدافه السياسية • لذا فقد سعت هذه الحركة الى كتابة التاريخ العربي بأسلوب محكوم ، وبشكل « حتمي » نحو الايديولوجية • إذ أن أغلب المستشرقين الذين عملوا في ميدان التاريخ العربي ظلوا عند مستوى النقد التجريدي • ولم يكونوا قط مؤرخين

جبريل فران الفرنسي ، وتيودور شوموفسكي كراتشكوفسكي الروسيان ، علوم البحروالملاحة العربية في أوج ازدهارها، بتاريخ الغزو البرتغالي للمحيط الهندي .

والذي أسعى إليه في هذه الدراسة ، تقديم الدلائل التي تنفي العلاقة القائمة والموهومة بين العرب والبرتغال ، كنتيجة لربط الملاحة العربية بتاريخ الغزو الاستعماري البرتغالي ، وبالتالي الأهم في المسألة ، هو نفي العلاقة بين القرصان البرتغالي فاسكودي جاما ، والملاح العربي العلامة أحمد بن ماجد . على اعتبار أن أغلب الباحثين من غير المشار اليهم قد اعتبروا أن "أحمد بن ماجد ، قد قضى على الملاحة العربية ، حين يشيرون الى علاقته بالمستعمر البرتغالي ، **والكل اعتمدوا** بدون استثناء على مصدر وحيد هو كتاب النهروالي (البرق اليماني في الفتح العثماني) وهذا من عيوب مناهج البحث وبالتالي الباحث ويمكن ايراد أمور كثيرة تبطل ايمانهم الظنية هذه :

١ - الاعتماد على رواية وحيدة تناقلها الجميع حتى بأخطائها .

٢ - عدم فحص الرواية ونقدها باستخدام أساليب وطرائق البحث العلمي .

٣ - التدليس والدس الواضح لأهداف ايدولوجية .

إن نفي التهمة عن الملاح العربي أحمد بن ماجد ، لهي ضرورة علمية حققة ، وضرورة قومية انسانية في الوقت نفسه . وتعتبر قضية جديدة

في تاريخ علوم الملاحة ، وبالتالي في التاريخ القروسطي . إذ يلقي ضوءاً جديداً على طبيعة الصراع القائم آنذاك . والأدوار التي أسندت لكل شعب من الشعوب ، والمسؤولية التي ستأخذ أسماءها عن جريمة تدمير وقتل وتخريب الجزر الهندية . ان نفي العلاقة هي شهادة وبراءة للأمة العربية من إثم وجرائم المستعمر الأوربي في حق السكان الهنود ؟ .

● وفي كتاب الدكتور أنور عبد العليم^(١)، روى حكاية العلاقة بين الملاح العربي أحمد بن ماجد والرحالة البرتغالي فاسكودي جاما ، بتخفظ ، لكنه كان متأثراً بما بين يديه من مصادر تؤكد وجود علاقة حقيقية بين الاثنين .

وفي رواية للمؤرخ البرتغالي خوادي باروش^(٢) المعاصر لفاسكودي جاما ، يرى أن ملك ماليندي (كينيا حالياً) قد أرسل الى فاسكودي جاما ، رباناً مسلماً من جوزرات أو كجرات ، يدعى المعلم (كاناكا) . ويروي دي باروش تفاصيل اللقاء بين الربان المسلم وبين فاسكودي جاما ، وقد دهش الأخير حين أطلعه الربان على خرائط ، وآلات عربية تستعمل في رصد النجوم ، في حين كان البرتغال يعتمدون على معرفة خطوط العرض ، برصد الشمس . ومن جملة رواية دي باروش أن فاسكودي جاما ، أبحر فوراً الى الهند في ٢٤ نيسان ١٤٩٨م فوصل الى كاليكوت بعد ٢٢ يوماً ، دون عناء . وفي رواية أخرى^(٣) أن فاسكودي جاما ، أبحر من ماليندي الى الهند في ١٦ آب سنة ١٤٩٨م فوصل كاليكوت في ٢٩ آب من نفس

العام • ويرجح العلماء رأي دي باروش بأنه هو الأصح •

● الملاحظة الأولى :

إذا كان العلماء يرجحون رأي دي باروش لما به من الدقة ، ويتفقون على تاريخ الانطلاق في ٢٤ نيسان ١٤٩٨م - بعد اللقاء بالربان المسلم ، فمن الأرجح أنهم تأكدوا ، وعرفوا اسم المرشد فيما إذا كان اسمه أحمد بن ماجد ، أم المعلم كاناكا ؟ وإذا كان دي باروش المعاصر جداً لفاسكودي جاما ، يؤكد التاريخ باليوم والشهر والسنة ويذكر التفاصيل الدقيقة للقاء ، بين الربان المسلم ، وبين فاسكودي جاما ، فهو حين يذكر أن اسم المرشد « كاناكا » وليس أحمد ابن ماجد ؟ •

ويتفق مع المؤرخ البرتغالي الثقة ، خوادي باروش ، المؤرخان البرتغاليان ، لوبيزدي كاستنهدا ١٥٥٤م - وداما يودي خوا ، من أن ملك ماليندي ، أعطى فاسكودي جاما « رباناً عربياً » (٤) ! •

هنا اختلف دي باروش مع هذين المؤرخين، حول جنسية الربان ، لكنهم لم يأتوا بغير اسم « كاناكا » . أما حول كلمة مسلم وعربي ، ففي العصور الوسطى كانت تختلط أحياناً لدى المؤرخين ، فترد تارة هكذا ، وتارة كذلك ، حتى أن الدكتور أنور عبد العليم في كتابه (ابن ماجد الملاح) يخلط بين كلمة الربان المسلم ، والربان العربي •

● يرى الدكتور أنور عبد العليم في كتابه « ابن ماجد الملاح » عام ١٩٦٧ ، أنه يرجع الفضل في التعريف الى أن أحمد بن ماجد كان هو المرشد لأسطول فاسكودي جاما الى طريق الهند ، الى جهود المستشرق الفرنسي جبريل فران عام ١٩٢٢م - وقد اهتدى جبريل هذا الى المصدر الأصلي الذي ورد فيه ذكر أحمد بن ماجد ، صراحة ، يرجع تاريخه الى عام ١٥٥٧م - وهو مخطوط لقطب الدين النهروالي بعنوان (البرق اليماني في الفتح العثماني) ويلاحظ أن عام هذا المخطوط هو نفس عام بركان برشلونة ، الذي ذهب ضحيته الكثير من المخطوطات الهامة التي كان من الممكن أن تلقي الضوء على هذه المسألة •

● الملاحظة الثانية :

لنعد قليلاً الى الغزو العثماني لليمن ، بلد النهروالي (اقامته) ١٥١١ - ١٥٨٢م - لنؤكد على حقائق مهمة وهي أن قطب الدين المكي النهروالي كان مؤرخاً لما أسماه بالفتح العثماني ، وهذا يظهر تعصبه للعثمانيين من جهة (٦) ، ومن جهة أخرى يجب أن لا يخفى أن العثمانيين قد جعلوا من السويس قاعدة بحرية لعملياتهم من البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، وفي الوقت نفسه ، تطلع العثمانيون الى قاعدة بحرية أمامية تمكنهم من مجابهة البرتغاليين في المحيط الهندي ، ومن السيطرة على البحر الأحمر ، والوقوف في وجه الدول الأوروبية ، فكانت هذه القاعدة هي عدن ؟ (٥) اذن نستنتج من هذه المقدمة ، أن المحيط

الهندي كان منطقة صراع بين الاستعماريين العثماني والبرتغالي والمملوكي البرتغالي قبل هذه الفترة . والنهروالي بالتأكيد متعصب للأتراك ضد الفرنجة ، لأن الأسبان والبرتغال ظلوا رافضين راية حرب الاسترداد المقدسة ضد العرب والدولة العثمانية وامتداد للحروب الصليبية الاستعمارية .

ففي حين عجز فاسكودي جاما عن الوصول الى الهند ، فمن الذي يستطيع معرفة مجاهيل هذا المحيط غير أحمد بن ماجد ، ذائع الصيت حينذاك ، واسع العلم والمعرفة انه أحمد بن ماجد ، هكذا ذهب الظن بالنهروالي ؟!

● ولنرجع الى مؤلف يعتبر تلميذاً لقطب الدين النهروالي ، من حيث الغرض ، وكتابة بين أيدينا يمكن الرجوع اليه . هو يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (١٦٢٥ - ١٦٨٩) م - . وقد كان كتاب النهروالي وارد الذكر مرجعاً لمؤلف كتاب « غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني » .

لنرى كيف وردت عبارة اشتراك أحمد بن ماجد ، في حملة فاسكودي جاما التي اعتمد عليها جبريل فران ١٩٢٢م ، وتيودور شوموفسكي (فما زالوا يواصلون الى معرفة طريق هذا البحر بكل ممكن حتى دلّهم عليها رجل يدعى أحمد ابن ماجد بسبب أن كبير الأفرنج أحسن إليه ولاطفه ثم أسكره مرة وسأله عن طريق البحر فقال له : لا تقربوا الساحل وأوغلوا في البحر فإن الأمواج لا تأتي إليكم فلما فعلوا ما أشار

عليهم تهيأ لهم الوصول الى بحر الهند وهرموز وكثروا فيه وعاثوا في أطراف الهند (٧) .

ولنرى رواية النهروالي (فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلّهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحب كبير الأفرنج وكان يقال له الأملندي وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان . توغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند وبنوا في كوه بضم الكاف العجمية وتشديد الواو وبعدها هذه اسم لموضع ساحل هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتوا ثم أخذوا هرموز (٨) .

● اذن يتفق النهروالي ويحيى بن قاسم ابن علي صاحب غاية الأمانى ، من أن رجلاً يدعى أحمد بن ماجد ، قد دلّ البرتغاليين الى طريق الهند ، دون الاشتراك في الحملة .

● هل يعقل أن رجلاً مثل أحمد بن ماجد يذكر هكذا ، يدعى ؟ - دون ألقابه ومخطوطاته الثلاثة والثلاثين ، وهو الرجل الفاضل ، العلامة ، صاحب الألقاب الكثيرة مثل : أسد البحر ، ليث الليوث ، شيخ ربانة المحيط الهندي ، والبحر الأحمر وبحر الزنج وخليج عثمان والخليج العربي وبحر جاوه وبحر الصين ، في القرن الخامس عشر الميلادي . عدا عن أن اسمه الشهير بالشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي . ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ

عبارة « وسلكتم من الكسر كثير من مراكبه »
ومن الثابت والمعروف أن رحلة البرتغالي
فاسكودي جاما كانت مؤلفة من ثلاثة سفن ،
تحطمت اثنتان منها قبل معرفة الطريق والوصول
الى الهند .

ومن الملاحظ أيضاً أنه في الوقت الذي
يشير فيه النهروالي ، ويحيى بن القاسم بن محمد
ابن علي ، الى الارشاد فقط ، يروي المؤرخ
دي باروش تفاصيل اللقاء بين المعلم « كاناكا »
وبين فاسكودي جاما ، ويعرف حتى أنواع
الأدوات التي استعملها الربان المسلم وطرق
رصده وخرائطه .

وحتى اذا اعتبر جبريل فران، وشوموفسكي
أن المعلم « كاناكا » هو أحمد بن ماجد اعتماداً
على مؤلف النهروالي « البرق اليماني في الفتح
العثماني » الذي تنثره الأهواء السياسية
والذي جاء بعد رحلة فاسكودي جاما بنحو
ثمانين عاماً ، فهل لدى العلماء الآن ،
وثيقة تثبت أن أحمد بن ماجد كان يعمل تحت
امرة ملك ماليندي (كينيا حالياً) حتى اعاره
الاخير لفاسكو دي جاما ؟ فهل يعقل أن هذا جرى
لأحمد بن ماجد؟! .

● في كتاب الدكتور أنور عبد العليم
الجديد « الملاحة وعلوم البحار عند العرب »
يرفض الدكتور أنور - بعد اثني عشر عاماً من
شكه وتردده - العلاقة بين أحمد بن ماجد
والرحالة فاسكو دي جاما ، ويدعم رفضه لهذه
العلاقة بحجج على ضوئها ، رجعنا الى مراجع
كثيرة في هذا البحث ، واعتبرنا هذه المسألة

بمساعدة ذوي الخبرة ، اكتشافاً جديداً ، يرفع
تهمة باطله عن العلامة العربي أحمد بن ماجد
ونورد فيما يلي حجج الدكتور عبد العليم التي
خلاصتها :

يفترض أنه لو كان صحيحاً أن أحمد بن
ماجد قد دلّ فاسكو دي جاما ، لكان من
الأحرى أن يدونها رجل من رجال البحر هو
مؤلف كتاب « المحيط » وهو سيد علي حسين
التركي الذي كان قبل النهروالي بعشرين عاماً ،
وبعد فاسكو دي جاما بستين عاماً . ومن الملاحظ
أن العوام ينسبون الحوادث الكبرى دائماً الى
الأسماء اللامعة . كذلك يرى النهروالي أن
أحمد بن ماجد قد دلّ البرتغالي فاسكودي جاما
في حال سكره ، وهو أمر مرفوض جملة
وتفصيلاً .

ويورد الدكتور أنور عبد العليم بعض
نصائح أحمد بن ماجد في كتابه (الفوائد في
أصول علم البحر والقواعد) .
« ينبغي أنك اذا ركبت البحر تلزم الطهارة
فأنك في السفينة ضيف من ضيوف الباري عزّ
وجلّ فلا تغفل عن ذكره » .

كذلك يبدو من مقال النهروالي الخلط
واضحاً فالمتتبع يعتقد حسب النص أن أحمد بن
ماجد دلّ فاسكو دي جاما ، على الطريق حول
الرجاء الصالح ، الذي كانت مراكبهم تتكسر
حوله ، لا على الطريق الملاحي من ماليندي الى
ساحل كينيا الى كاليكوت ، وهي ميناء صغير
على ساحل الهند الغربي .
إن الملاحين العرب في الوقت الذي كانت

بأيديهم أغلب تجارة المحيط الهندي ، هل يعقل أن يسمحو للبرتغال باقتراع هذه السيادة منهم ويدلونهم على طريق الهند .

ليس هناك ما يثبت أن أحمد بن ماجد قد ركب مركباً برتغالياً أو أرشدها إلى الهند ، أو تقابل مع البرتغال ، أو جرت مناظرة بينه وبينهم ، ولكنه عاصرهم ونظر إليهم نظرتة إلى المستعمر (١٠) .

ولقد أشار الدكتور أنور عبد العليم في ثبوت مراجعته وفي الصفحة ٢٤٤ إلى أنه رجع إلى شوموفسكي في بحثه عن الرهمنجات المجهولة لأحمد بن ماجد ، بأن رحلة فاسكو دي جاما - حسب الادعاء - غني بشرها وتحققها وترجمتها إلى اللغة الروسية ووضع الفهارس - تيودور شوموفسكي - لينغراد عام ١٩٥٧ . وهنا رجعنا إلى الطبعة العربية (ثلاث أزهار في معرفة البحار (١١)) . وفي رجعتي هذه لم أظن بالدليل الأكيد ، سوى تأكيدات جبريل فران الفرنسي ، المعتمد على رواية النهروالي والتي أخذ منها وبها شوموفسكي .

ويعتمد شوموفسكي على مقطع صغير من أرجوزة أحمد بن ماجد (حاوية الاختصار في أصول علم البحار) ليؤكد على أسف وحزن وندم أحمد بن ماجد على فعلته . وأؤكد قبل تقديم المقطع ، أنه توجد فيه دلالة تؤكد الأسف ، بل تؤكد الإدانة لفعلة البرتغاليين البشعة واطهار خوف الناس منهم ، والعجب من أمرهم :

وجاء ليكاليكوت خذ ذي الفايده
لعمام تسعماية وست زايده

وباع فيها واشترى وحكما
والسامري برطله وظلما

وسار فيها فبغض الاسلام
والناس في خوف واهتمام

يا ليت شعري ما يكون منهم
والناس معجبين من أمرهم
من كتاب تيودور شوموفسكي المذكور (١٢)
وفي باب أحمد بن ماجد مجهوداته وأعماله ، تعترض هذه الجملة ص ٧٧ « إن ما حصل عليه فران من مواد جافة وتحدث عنها ، هي بعيدة كل البعد عن الكمال » . هنا في هذه الجملة نستطيع أن نضل إلى الشك في النصوص التي بين أيدينا . كذلك يؤكد أنه من بين الثلاثة والثلاثين مؤلفاً لأحمد بن ماجد ، ليس هناك ما يؤكد منها ويحتوي على حقائق لها علاقة بسيرة المؤلف . ومن هنا كانت عدم معرفتنا بتاريخ ميلاده ، وكذلك فترة تأليف معظم أعماله (١٣) .

وفي نفس الصفحة ٧٧ يقول : (إلا أنه في هذا الصدد يمكن الاهتداء بالمعروف من تواريخ مقالاته أنها بين سنة ١٤٦٢ - ١٤٩٥ م . على اعتبار أنه لا يوجد قبلها أو بعدها أية مؤلفات ، وهو أمر ضروري أن نعترف أنه مؤسس على استناد ضعيف (١٤)) .

وفي الصفحة ٨٨ أعطى شوموفسكي نتيجة في تحليله لمخطوط لينغراد عن حقيقة اشتراك أحمد بن ماجد يقول : (وهي تفيض - الأجوزة - بتصوير عذاب الرجل المضموك عليه . والحسرة والندم وما أقدم عليه والنقمة والغضب على

لا كما فعل جبريل فران الفرنسي وتيودور
شوموفسكي الروسي .

- (١) ابن ماجد الملاح - سلسلة اعلام
العرب ١٩٦٧ . القاهرة ،
- (٢) الملاحه وعلوم البحار عند العرب
د. أنور عبد العليم - سلسلة عالم المعرفة -
الكويت ١٩٧٩ .
- (٣) نفس المصدر السابق .
- (٤) د. أنور عبد العليم - علوم الملاحه
عند العرب - سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٧٩ .
- (٥) د. السيد مصطفى سالم ، الفتح
العثماني الأول صادر عن جامعة الدول العربية
- معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة -
١٩٦٩ .
- (٦) من اسباب كتابة « البرق اليماني في
الفتح العثماني » لقطب الدين محمد المكي النهروالي
انتصار سنان باشا على الثائرين اليمانيين . وقد
كتب كتابه هذا بتكليف من سنان باشا . د. عبد
الكريم رافق : المشرق العربي في العهد العثماني
- أمليه لطلاب السنة الرابعة قسم التاريخ -
جامعة دمشق . ص (٦٥) ١٩٧٨ - ١٩٧٩ .
- (٧) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد
ابن علي (غاية الأمان في أخبار القطر اليماني)
ص ٦٣٠ - ٦٣١ .
- (٨) قطب الدين النهروالي - البرق اليماني
في الفتح العثماني - .
- (٩) صادر عن المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب - الكويت ك الثاني ١٩٧٩ .
- (١٠) د. أنور عبد العليم - (الملاحه وعلوم
البحار عند العرب) الكويت ١٩٧٩ .
- (١١) تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي ،
ترجمة وتعليق محمد منير مرسى - سلسلة عالم
الكتب - القاهرة عام ١٩٥٧ .
- (١٢) ثلاث أزهار في معرفة البحار ليننغراد
١٩٥٧ ترجمة وتعليق محمد منير مرسى - عالم
الكتب - القاهرة ١٩٥٧ .
- (١٣) نفس المصدر السابق .
- (١٤) نفس المصدر السابق .
- (١٥) ثلاث أزهار في معرفة البحار -
تيودور شوموفسكي - ترجمة وتعليق محمد منير
مرسى - سلسلة عالم الكتب ، القاهرة ١٩٥٧ .

البرتغاليين . إن هذه الصورة أو هذا الوصف
وثيقة لا تقدر بثمن لواقع الرحلة نفسها التي كان
ابن ماجد يبدو مخلصاً لها حتى النهاية (١٥) .
وأرد هنا بدوري على هذا الادعاء
- الافتراض - بأن أحمد بن ماجد ، تعجب من
أمر البرتغاليين . هل جاؤوا ليحكموا البلاد ،
أم هم لصوص مجانيين ، فهل يفهم من هذا أنه
دلّهم على الطريق ؟!

لقد قال أحمد بن ماجد في نهاية أرجوزته
المسماة ضريبة الضرائب :

فإن تجهلوا قدر حياتي فأنما

سيأتي رجال بعدكم يعرفوا قدري
إني هنا أثبت هذا البيت لألقي المسؤولية
على عاتق الباحثين العرب . ولا بد من القول :
في النهاية من أن شوموفسكي قد نقل عن
جبريل فران ، وهذا عن قطب الدين النهروالي ،
دون تمحيص ، ودون نقد للرواية . ومما
يثبت كلامي خطأ ما وقع فيه النهروالي ، في
المقطع الذي استشهد فيه باشتراك أحمد بن
ماجد ، ووصف وحشية البرتغاليين . وهذا الخطأ
لا يمكن أن يقع فيه مؤرخ ثقة ، لأن العرب
تقول : من يخطئ في الجزئيات يخطئ في
النتائج . وهذا الخطأ هو قول : قطب الدين
النهروالي بأن فاسكو دي جاما قد فتح « كوه »
أو جاوا ثم هرموز . والواقع إن هرموز قد
فتحها الفونسودا البوكيرك البرتغالي عام ١٥٠٧م
قبل بناء مستعمرة « كوه » البرتغالية ،
والنهروالي قدّم الأخيرة على الأولى ضارباً
بالزمن عرض الحائط .

وأخيراً ينبغي فهم النصوص بما فيها ،